الأسس الأنطولوجية فى جدل الوجود عند هيجل

قراءة تحليلية نقدية

The Ontological Fundamentals in Hegelian Existence Dialectic

A Critical Analytic Reading

آية صلاح فرغلى حسنين

باحثة دكتوراه تخصص "الفلسفة الحديثة والمعاصرة"

كلية الآداب– جامعة الإسكندرية

ملخص:

تُعَدّ نظرية هيجل فى الوجود المطلق نقطة البدء الضرورية لكل مذهب فى الوجود تلاها، سواء كان يؤيدها ويتوسع فيها، أو يرفضها ويقيم ما يضادها أو يعلو عليها. ومن ثم فإنها كانت دائماً حجر الزاوية فى الفلسفات الوجودية. والإسهام الهيجلى ماثل هنا فى إبراز حقيقة أن التعيينات الأنطولوجية للواقع، أى المقولات التى تصف الواقع باعتباره كلاً وحركته وتطوره ليست مبادئ نهائية، بل هى معرفة متطورة بالعالم، وتلك المعرفة عملية تاريخية، ومقولاتها لا تشير فقط إلى النشاط المعرفى للذات الإنسانية، بل تشير أيضاً إلى الوجود الموضوعى.

Abstract:

Hegel's theory of absolute existence is necessary starting point for every doctrine in existence followed it, whether it is supported or rejected by this doctrine. Hence, this theory has always been the cornerstone of existential philosophies.

It was observed that, the contribution of Hegel lies in highlights the fact, that the ontological category which describe the being aren't final principles, it is evolving knowledge of being, and this knowledge is historical process, and its category refer not only to the knowledge activity of the human being, but also refer to the objective existence.

تمهيد:

تُعَدّ نظرية هيجل فى الوجود المطلق نقطة البدء الضرورية لكل مذهب فى الوجود تلاها، سواء كان يؤيدها ويتوسع فيها، أو يرفضها ويقيم ما يضادها أو يعلو عليها[1]. ومن ثم فإنها كانت دائماً حجر الزاوية فى الفلسفات الوجودية.

وتختلف نظرية الوجود –الأنطولوجيا– عند هيجل عنها عند سابقيه من الفلاسفة. فهو يقول بهوية الأنطولوجيا والمنطق ونظرية المعرفة، ويقدم نقداً عميقاً للتعارض الميتافيزيقى بينها. ولن نجد عند هيجل نسقاً من المقولات الأنطولوجية منفصلاً عن نسق آخر من المقولات المنطقية والمعرفية أو متميزاً منه. والإسهام الهيجلى ماثل هنا فى إبراز حقيقة أن التعيينات الأنطولوجية للواقع، أى المقولات التى تصف الواقع باعتباره كلاً وحركته وتطوره ليست مبادئ نهائية، بل هى معرفة متطورة بالعالم، وتلك المعرفة عملية تاريخية، ومقولاتها لا تشير فقط إلى النشاط المعرفى للذات الإنسانية، بل تشير أيضاً إلى الوجود الموضوعى[2].

وعلى الرغم من أن هيجل قد قدم نسقاً مثالياً أكثر معقولية وفهماً للعالم والوجود اتسم ولا يزال بطابع الغموض والصعوبة، فإنه لم يقصد أن يسلسل التصورات، بل قصد الإيحاء بالمنطق الباطنى فى التجربة الإنسانية، وليست التجربة هنا كما هى عند كانط مجرد تأمل فى العالم الحسى، وإنما هى محنة الحياة، أو على وجه التحديد توجد أنطولوجيا عند

---

(1) عبد الرحمن بدوى: الزمان الوجودى، ص ص ٢٢–٢٣.

(2) هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ص ٥ .

هيجل بمعنى أن الإنسان عنده ليس وعياً يتسم بالوضوح بقدر ما هو حياة تسعى لفهم ذاتها[١].

وتصف فينومينولوجيا هيجل هذا الجهد الذى يبذله الإنسان كى يفهم نفسه، ففى كل عصر تاريخى ينطلق الإنسان من يقينه الذاتى ويتصرف على ضوء هذا اليقين، ولا يكاد يشهد الإنسان نتائج قصده الأول المذهلة حتى يكتشف فيها الحقيقة الموضوعية. وعندئذٍ يُعلن عن مشروعه وينطلق مرة أخرى، فيتعرف على ما كان فى مشروعه الجديد من تجريد إلى أن يصير اليقين الذاتى معادلاً فى النهاية للحقيقة الموضوعية. وما دامت الغاية القصوى للتاريخ لم تتحقق– فلو تحققت لانعدمت حركة الإنسان وصار أشبه بالحيوان– يظل يسعى الإنسان موجهاً نحو تحديد ذاته، وبالتالى فإنه يرفض الخضوع لأى تحديد[٢].

(١) طبيعة الأنطولوجيا فى المذهب الهيجلى:

تكشف لنا الدراسة المتأنية والعميقة للفلسفة الهيجلية عن أفكار محورية تنساب فى جوانب فلسفته كلها، وتُبرز طبيعتها الأنطولوجية. إذ يذهب هيجل إلى أن الإمكانات أغزر وأخصب من الواقع، فالواقع الماثل أمامنا يحمل فى جوفه قدراً من "الإمكانات" أكثر ثراء مما هو قائم بالفعل، وذلك لأن الإمكان ميل تاريخى وقوة عينية، والواقعة المعطاه لا تكون واقعة إلا باعتبارها لحظة فى عملية مؤدية إلى التجاوز وإلى ما لم يتحقق بعد. وعلى هذا، فإن الواقع لا يمثِّل الحقيقة النهائية. إذن، فإن فكرة أن الوجود الفعلى

(1) مجلة أوراق فلسفية، العدد "الثامن عشر"، مقال: "الوجودية فى فلسفة هيجل" لميرلوبونتى، ترجمة: عبد الفتاح الديدى (بتصرف)، ص ص ٨٥–٨٦.

(2) المرجع نفسه (بتصرف) ، ص ٨٦.

Existence غير حقيقى، وما هو حقيقى لا يوجد وجوداً فعلياً، تمثل إحدى الأفكار البالغة الأهمية فى فلسفة هيجل[١].

ولقد كانت مهمة الفلسفة الحقيقية فى نظر هيجل هى احتواء كل الثنائيات: "الحرية فى مقابل الضرورة"، و"الوجود فى مقابل اللاوجود"، وذلك بالكشف عن حقيقة "المطلق" باعتباره وحدة "الذات والموضوع"، ومؤلفاً من "الوجود واللاوجود"، لأنه مزيج من "الوجود والعدم"[٢].

ويرى هيجل أن الماهية هى وحدة الموجود وهويته، وحينما يحقق الموجود كل إمكاناته يكون فى هوية مع مفهومه؛ وهو وجود الذات الواعية الحرة، وهكذا يتحول التاريخ فى المنطق إلى أنطولوجيا. ويُقدم هيجل المعرفة باعتبارها "الماهية الأنطولوجية للعالم"، ولكنه لا يُقدم فى النهاية وحدة عينية بين الجدل والمنطق ونظرية المعرفة، بل بطمس تمايزات تلك الوحدة واختلافاتها. وهكذا يُمكن استنباط العالم من الفكر، حيث يبزغ المفهوم فى الفكر، ويعى نفسه فى التاريخ الإنسانى[٣].

هذا، ويرى هيجل أن "الوجود الماثل هناك" يعين (يحدد) نفسه من حيث الماهية، ويظهر الموجود حينذاك من حيث أنه الموجود الماثل هناك داخل اختلاف "الوجود فى ذاته" و"الوجود الماثل هناك". إذن، فإن "الوجود الماثل هناك" لا يصير وجوداً عينياً إلا فى

---

(1) على حنفى محمود: جدل العقل والوجود– دراسة فى فلسفة هيجل وكيركجارد، ص١١٢، ص ص ١١٤–١١٥.

وكذلك: هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ص ٢٣.

(2) زكريا ابراهيم: هيجل، ص ٦٦.

(3) هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ص ص ٢٢–٢٣.

الوقت نفسه الذى يكون فيه موجوداً داخل هذا الوجود "موجوداً فى ذاته"، فالتعين الأساسى للوجود الماثل هناك هو "الوجود الذى سرت فيه الصيرورة". ومن ثم فإن وحدة الاختلاف المطلق بين "الوجود فى ذاته" و"الوجود الماثل هناك" هى مركز الأنطولوجيا الهيجلية. فالموجود لن يُفهم فى طابعه العينى إلا حينما يُحاط به "كتوسط بين ذاته وذاته" كصيرورة ذاتية(١).

وأخيراً، يرى هيجل أن الفكرة المطلقة هى فكرة الوجود نفسه فى حقيقتها، أى "الكلى" الحاضر فى كل موجود، كما أنها كذلك الفرد الحى. ومن ثم فإنه يمكن أن نعتبر الفكرة المطلقة القلب الحقيقى فى مركز الأنطولوجيا الهيجلية(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هيجل أكد على القيمة الجوهرية للفردية، وذلك باعتبار أن كل فرد هو هدف فى نفسه. كما أكد على القيمة اللانهائية للذاتية بإدماجها فى التاريخ(٣).

(٢) جدل الوجود عند هيجل:

يبدأ هيجل جدله المنطقى من مقولة الوجود "الوجود الخالص" التى يظهر عنها مقولة العدم" **Nichts**، وذلك لأن "الوجود الخالص" هو فى الحقيقة "عدم"، ويجمع بين هاتين المقولتين المتناقضتين فى وحدة إيجابية توحدهم بإلغاء تناقضهم الذاتى، ولكن مع الاحتفاظ بالاختلاف بينهما، وهذه الوحدة هى مقولة "الصيرورة" **Werden** ، التى تمثل نقطة انطلاق لدائرة جديدة فى الجدل الهيجلى، تتجه نحو الكشف عن الوجود المتعين

---

(1) المرجع نفسه، ص ١٠١:١٠٥

(2) المرجع نفسه، ص ص ٢٦٣-٢٦٤.

(3) **Frederick Beiser**: **Hegel**, **P**.**280**.

"الدازين" **Dasein**. وعلى هذا، فإن الجدل الهيجلى يتألف من "الفكرة" **Thesis**، و"النقيض" **Antithesis**، و"المركب منهما" **Synthesis**[١].

ومن ثم فإن "الوجود الخالص" و"العدم" ليسا إلا لحظتين مجردتين، وبمجرد أن يرتبط التجريدان (جدلياً) فإنهما يستعيدان الوضع العينى فى "الصيرورة"[٢].

(٣) منطق هيجل أنطولوجيا:

يحكم المنطق كل الفلسفة الهيجلية، وهو بمثابة مذهب لتحديد الفكر[٣]، حيث يختفى التعارض بين الذاتى والموضوعى، ويختلط المنطق بالأنطولوجيا؛ إذ إن مقولات الفكر هى فى الوقت نفسه مقولات الموجود، وإذا كان الفكر المنطقى جدلياً، فلأن الموجود نفسه جدلى " فالجدل التصورى ما هو إلا انعكاس للجدل الواقعى". وهكذا يقوم "المنطق" عند هيجل بمهمة عرض تركيب الوجود بما هو كذلك، أى أعم صور الوجود. ويُعد منطق هيجل أنطولوجيا بقدر ما يعالج مقولات: الوجود، والعدم، والجوهر، وما إلى ذلك. والمنطق هو الجزء الأول من المذهب الهيجلى بالضرورة لأنه يفسر لنا المبدأ الأول للعالم، وحين نصل إلى تفسير كامل وتام للعلة الأولى، فإن الخطوة التالية سوف تكون استنباط الوجود الفعلى للعالم الواقعى من هذه العلة [٤].

---

(1) **Frederick C. Beiser: The Cambridge Companion to Hegel, Art: Hegel's Dialectical Method (by) Michael Forster, P. 133.**

(2) على حنفى محمود: جدل العقل والوجود– دراسة فى فلسفة هيجل وكيركجارد، ص ١٨٢.

(3) **Frederick C. Beiser: The Cambridge Companion to Hegel, Art: Hegel's Conception of Logic (by) John Burbidge,P. 94.**

(4) المرجع نفسه، ص ١٧٦: ١٧٨.

هذا، ويدرس كتاب المنطق لهيجل مقولات الأنطولوجيا التقليدية بوصفها المفاهيم الأساسية للوجود فى الأنماط المختلفة. وليست المسألة هنا مسألة مفاهيم منطقية صورية، ولكنها مسألة تفسيرات أنطولوجية عينية: "العام والكلى ليس مأخوذاً بوصفه تجريداً بسيطاً، بل بوصفه كلياً موضوعياً، أى بوصفه ما يكون فى ذاته كلاً عينياً"(١).

وقد يكون من شأن تحديد بعض وظائف المقولات فى الكشف عن الطابع الأنطولوجى؛ إذ تكشف بوضوح عن الطابع الأنطولوجى للواقع، كما تربط بإحكام بين "الذات والموضوع" أو بين "الأنا والواقع"(٢).

ويرى هيجل أن الماهية أساس الوجود، والوجود المقصود هنا هو الوجود الفعلى Existenz، لأن الماهية ستبدو أولاً فى صورة الهوية، ثم يتضح أن الهوية تتضمن الاختلاف، وأنهما معاً يؤلفان مقولة الأساس، وهذا الأساس هو أساس الوجود الفعلى. كما يرى أن الماهية هى الانتساب إلى الذات، والانتساب إلى الذات هو الذاتية أو الهوية(٣).

(٤) التاريخية: المفهوم الأنطولوجى للحياة:

يُعد "التاريخ" مركز فكر هيجل الفلسفى. وعلى هذا، فإنه لا يُمكن إغفال "التاريخية" فى النسق الهيجلى، إذ إنها لم تكن أقل من ثورة فى تاريخ الفلسفة(٤).

---

(1) هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ص ٨٦، ٢٦٥.

(2) يوسف سلامة: مفهوم السلب عند هيجل، ص ص ٢٠٦-٢٠٧.

(3) إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلى عند هيجل، ص ص ٢١٠-٢١١.

(4) Frederick C. Beiser : The Cambridge Companion to Hegel, Art: Hegel's Historicism (by) Frederick C. Beiser, P. 270.

والمنهج التاريخى عند هيجل فينومينولوجى، إذ إن موضوعه الرئيس هو الوجود الإنسانى[١]. وتضع "التاريخية" نفسها فى سياق أنطولوجى فى النسق الهيجلى. إذ كانت تنسب إلى الذات وحدها ضمن العلاقة النظرية بين الذات والموضوع، وكانت تبدو مكرسة إما للاستبعاد أو لتوكيد نفسها ضد العالم. أما الحركة الخلاقة للحياة التى ينطلق منها الجدل الهيجلى، فإنها تسمح بترابط منتظم يضم تاريخية العالم إلى تاريخية الأنا، ويضم تفسير الوجود إلى تفسير الوجود المتعين (الوجود الماثل هناك أو وجود الذات الإنسانية عند هيجل **Dasein**). ويصبح مفهوم التاريخ بذلك (الكلية التى يحيط بها المفهوم الفكرى للصيرورة) [٢].

ويوضح هيجل أن تاريخ الموجود لا يصل إلى تمامه إلا مع وجود "الحياة"، حيث يوجد الموجود بوصفه كذلك وجوداً فعلياً فى حقيقته. وتوجد الحياة باعتبارها وحدة "الذاتية" و"الموضوعية"، بحيث تصبح هذه الوحدة بالنسبة إليها "أساس وماهية" الموجود. وعلى هذا، فإن التاريخية سمة أنطولوجية مميزة للحياة. ولقد احتل وجود الحياة مكانه فى مركز الأنطولوجيا الهيجلية، إذ تظهر فكرة الحياة داخل نطاق كتاب "المنطق" كأرضية أصلية لهذه الأنطولوجيا[٣].

(٥) الوجود الحقيقى عند هيجل:

تدور فلسفة هيجل بأسرها حول موضوع واحد هو العقل، ولكن العقل فى رأى هيجل لا يستطيع أن يحكم الواقع ما لم يصبح الواقع فى ذاته معقولاً، وتصبح هذه

---

(1) **Ibid**, **P**.**287**,**290**.

(2)هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ص ٣٣.

(3) المرجع نفسه، ص ٤٤، ٢٤١.

المعقولية ممكنة عن طريق تغلغل الذات فى لب التاريخ. وبذلك يصبح الواقع الموضوعى تحقيقاً للذات فى الوقت نفسه. وتلك هى الفكرة التى أوجزها هيجل فى القضية التى تُعد أهم قضاياه جميعاً، وهى أن "الوجود فى جوهره ذات"[١].

يقول هيجل فى مقدمة "فينومينولوجيا الروح": "الجوهر الحى هو الوجود الذى هو فى الحقيقة ذات، الجوهر الذى لا يكون واقعياً بالفعل إلا إلى المدى الذى يكون فيه هذا الجوهر هو حركة وضع نفسه أو التوسط بين ذاته وبين تطوره إلى آخر (صيرورته آخر)[٢].

إذن، فإن الوجود الحقيقى هو "الوجود المتعين" **Dasein** أو "الوجود الماثل هناك"، باعتباره وحدة "الوجود المحض" الخالى من أى تعين و"العدم "المجرد فى الصيرورة[٣].

والمفهوم الأساسى للوجود عند هيجل هو الوحدة الأصلية بين "الذاتية" و"الموضوعية"، بين "الوجود لذاته" و"الوجود فى ذاته". وصياغة هذه الوحدة بوصفها (عملية تكوّن الموجود نفسها)– تؤدى إلى تصور الموجود باعتباره وحدة فى عملية الوجود، وتكشف عن ماهوية (الماضى–الحاضر) داخل بُعد الماهية، فالماهية هى التى تسمح بوحدة الموجود فى عملية الوجود، بالحفاظ على الموجود بوصفه ذاتاً[٤].

---

(1) على حنفى محمود: جدل العقل والوجود– دراسة فى فلسفة هيجل وكيركجارد، ص ص ١١٦–١١٧.

(2) **Walter, Kaufmann: Hegel, Texts and Commentary, P.28.**

نقلاً عن: هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ص ١٠٥.

(3) **James Hutchison Stirling: The Secret of Hegel "Being the Hegelian System in Origin, Principle,Form and Matter", P.219,245.**

(4) المرجع نفسه، ص ٢٨٨.

ومن ثم فإن هيجل يؤكد أن الجدل– بوصفه حقيقة الوجود– هو المعنى الكامل الذى لن يتضح الحاضر فيه إلا إذا اكتمل الماضى كله، واستطاع أن يشير إلى المستقبل. وبهذا ينتهى هيجل إلى تقريره لفكرة "الصيرورة". فالحقيقة عند هيجل تتعلق بالوجود فى عملية تطوره، إنها عملية تحقيق الوجود لإمكاناته[1].

تعقيب:

مما سبق يتبدى لنا أن الوجود عند هيجل لا يلتقى بنفسه كوجود متعين فحسب، بل كموجود متعين، لا كوجود هناك، بل كموجود هناك؛ إنه يزيد عن كونه كثرة من التعينات الموجودة وجوداً خارجياً، إنه موجود عينى ونتاج قد تطور داخل وحدة.

والوجود الحقيقى عند هيجل فى جوهره ذات، والمفهوم الرئيس للوجود هو الوحدة الأصلية بين "الذاتية" و"الموضوعية"، بين "الوجود لذاته" و"الوجود فى ذاته"، وصياغة هذه الوحدة بوصفها عملية تكوّن الموجود.

---

(1) على حنفى محمود: جدل العقل والوجود– دراسة فى فلسفة هيجل وكيركجارد، ص ١٣٦.
وكذلك: هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ص ٩٥.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع الأجنبية:

(1) **Frederick Beiser**: **Hegel**, **Routledge**, **New York and London**, **2005**.

(2) **Frederick C. Beiser**: **The Cambridge Companion to Hegel**:

- **Art**: **Hegel's Conception of Logic** (**by**) **John Burbidge**,
- **Art**: **Hegel's Dialectical Method** (**by**) **Michael Forster**,
- **Art**: **Hegel's Historicism** (**by**) **Frederick C. Beiser**, **Cambridge University Press**, **1993**.

(3) **James Hutchison Stirling**: **The Secret of Hegel "Being the Hegelian System in Origin**, **Principle**, **Form and Matter"**, **Library University of Toronto**, **1974**.

ثانياً : المراجع العربية:

(٤) إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلى عند هيجل، دار المعارف، ط (٢)، ١٩٨٥م.

(٥) زكريا ابراهيم: هيجل، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٦) عبد الرحمن بدوى: الزمان الوجودى، دار الثقافة، ط (٣)، بيروت، ١٩٧٣م.

(٧) على حنفى محمود: جدل العقل والوجود– دراسة فى فلسفة هيجل وكيركجارد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

(٨) مجلة أوراق فلسفية، العدد "الثامن عشر"، مقال: "الوجودية فى فلسفة هيجل" لميرلوبونتى، ترجمة: عبد الفتاح الديدى، ٢٠٠٨م.

(٩) هربرت ماركيوز: نظرية الوجود عند هيجل أساس الفلسفة التاريخية، ترجمة وتقديم وتعليق: ابراهيم فتحى، دار التنوير للطباعة والنشر، ط (١)، بيروت– لبنان، ١٩٨٤م.

(١٠) يوسف سلامة: مفهوم السلب عند هيجل، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١م.